نظرية السياق في المدوّنة اللسانية

مختار درقاوي

قسم اللغة والأدب العربي جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف

الملخص:

من الأسئلة الجوهرية التي يُفترض أن تجيب عنها النظرية اللسانية السؤال الآتي: ما هي الآليات التي تسعفنا في إدراك المعنى ؟. ومعلوم أنّه يفترض في الإجابة عن هذا السؤال إقامة الاستدلال واستحضار المعطى. من هنا نروم في هذا الموضع البحثي مساءلة المنجز المعرفي الحديث والمعاصر بشقيه الدلالي والتداولي (semantics sémantique -) - (pragmatique - pragmatics) – في إحدى آلياته واستكشافاته؛ وأقصد بذلك السياق. من دون غضّ الطرف عن مساءلة واستنطاق الجهود التي بذلها سلفنا في هذا الموضوع؛ ذلك أنّنا نعتقد أنّ البحوث النظرية والاستكشافات التجريدية لا يمكنها أن تُخصب الإخصاب كلّه إلا إذا استندت إلى ما تركه الفكر الإنساني عبر حضاراته الزاهرة.

ولعلّ من أهمّ مساطر هذا البحث سعيه نحو إقرار الهدف الآتي: أنّ السياق في المدونتين اللسانيتين العربية والغربية قد حظي بنصيب كبير من الاهتمام والعناية وبمزيد بسط، مردّه قناعة راسخة مفادها أنّ الدلالة في كلّ موضع إنّما تتحقّق بحسب السياق وأنّ أيّ انحراف عن المراد والمقصود مرده استخدام السياق بطريقة غير مرضيّة، وعليه لا نعجب عندما يذهب الموقف اللسانيّ والنقديّ المعاصر إلى عدّ هذا المبدأ مسلكا تأويليا فاعلا من مسالك فهم النص والخطاب؛ وسبيلا مُعِينا على تخليص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها.

يرتبط مصطلح السياق في البيئة والثقافة اللسانية الغربية بعالمين اثنين، أحدهما أنتروبولوجي ويسمّى ماليونوفسكي Malinowski، والآخر لغوي يدعى فيرث J.R.Firth وكلاهما كان مهتما بالمعنى، وذلك من خلال النظر إلى السياق الذي تستخدم فيه اللغة، ولكن هذا الاتفاق حول فاعلية السياق بوصفه مبدءا جوهريا يخدم علم الدلالة الوصفي والتاريخي لا يعني اتفاقا في طرائق البحث عندهما، بل هناك اختلاف بيّن نلحظه على مستوى الإجراء الفعلي والوظيفي.

- السياق في المدونة اللسانية الغربية:

عدّ ماليونوفسكي الكلام المنطوق ذا دلالة ومعنى انطلاقا من السياق الذي استخدم فيه، وهذا ما جعل أفكاره مبنية على ملاحظاته للطريقة التي توافقت فيها لغة القبائل التي كان يدرسها مع نشاطاتهم اليومية، وكانت مِن ثَمَّ جزءا يتعذّر فصله عنها. وهذا التأصيل العلمي لم يشفع لماليونوفسكي ولم يكن مانعا من توجيه عدد من الآراء النقدية له، فمع ما قدّمه من إسهامات ترقى إلى مستوى النماء والإبداع الفكري -فإنّها حسب بالمر Palmar تظل لا توفّر الأساس والدعم المرجعي لأية نظرية دلالية علمية، ذلك أنّ ماليونوفسكي لا يناقش الطرق التي يمكن بها تناول السياق بأسلوب منظّم، وهذا العجز والقصور أدّى إلى الإفادة والاستنجاد بمقترحات فيرث(١).

تبنّى فيرث فكرة ماليونوفسكي، وأقرّ بأنّه مدين له، ولكن في الآن نفسه تنبّه وأدرك أنّ سياق الحال بالصورة التي قدّمها ماليونوفسكي لم يكن مرضيّا للاتجاه اللساني الأكثر دقّة وإحكاما، فنجم عنه عزوف عن عَدِّ السياق جزءا من العملية الاجتماعية فقط، بحيث يمكن تأمّله منفردا إلى عدّه أداة من أدوات عالم اللغة كذلك، مثله مثل الطرق الموظّفة في النظام النحوي تستدعي مجموعة من المؤثرات والفصائل؛ بمعنى أنّ السياق يتعامل مع المعنى باعتبار الارتباطات الحسية أو العلائقية Sense relation بالنظر إلى العلاقات بين الكلمات، سواء أكانت علاقات تلاؤمية Syntagmatic أم علاقات استبدالية Paradigmatic(٢).

وتعني التلاؤمية هنا علاقة العنصر اللغوي مع العناصر الأخرى في مجال اللغة الذي يقع فيه، في حين تعني الاستبدالية علاقته مع العناصر التي قد يستبدل بها

(١) ينظر: ف. ر. بالمر، علم الدلالة إطار جديد، تر: صبري إبراهيم السيّد، دار المعرفة الجامعية ١٩٩٩، ص٧٦.

(٢) ينظر المرجع نفسه، ص٧٦-١٤٣.

أو يقوم مقامها. إضافة إلى هذا ركّز فيرث على الملامح الوثيقة بالمشتركين التي تشمل الحدث الكلامي، والحدث غير الكلامي، ومدى فاعلية الأشياء ذات الصلة بالموقف، وأثر الحدث الكلامي في بيان المعنى.

وعلى هذا فإنّ فيرث في نظريته الدلالية عمّق مفهوم المعنى الذي اختزله ماليونوفسكي بربطه بالبيئة الاجتماعية، ليجعل منه فيرث المحصّلة النهائية لتحليل الحدث اللغوي تدريجيا على مستويات اللغة كافة، الاجتماعية، والصوتية، والصرفية والنحوية، والمعجمية، يقول: "لمعرفة المعنى يمكن أن نتقبّل الحدث اللغوي بشكل كامل، وبعد ذلك نختبره على مستويات مختلفة بالترتيب التنازلي، مبتدئين بالسياق الاجتماعي، ونتقدم من خلال النحو والمفردات إلى الأصوات ووظائفها"(١).

كما نجد أنّ فندريس Vendryes قد نوّه بأهمية السياق في بيان وتعيين قيمة الكلمة، مشيرا إلى أنّ الكلمة توجد في كل مرّة تستعمل فيها في جو يحدّد معناها تحديدا مؤقتا، وهذا ما جعل السياق آلية قادرة على فرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة على الرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدلّ عليها، كما أكّد أنّ السياق هو الكفيل الوحيد الذي يمكن أن يخلّص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها، وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية، ولكن الكلمة بكل المعاني الكامنة توجد في الذهن مستقلة عن جميع الاستعمالات التي تستعمل فيها مستعدة للخروج والتشكّل بحسب الظروف التي تدعوها(٢).

(١) عبد الكريم مجاهد، الدلالة عند ابن جنّي، مجلّة الدارة، العدد الأوّل-شوال ١٤٠٣هـ-يوليو١٩٨٣م، الرياض، ص١٦٩.

(٢) فندريس، اللغة، تر: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت.ط ص٢٣١-٢٣٢.

وفي هذا الصدد يقول إبراهيم أنيس: "وكان لهذا أستاذ الأدب الإنجليزي يحذّرنا من تلك الألفاظ التي نظنّ أنّنا نفهم معناها، ويقول لطلابه: إنني لا أخشى عليكم في أدب شكسبير من تلك الألفاظ الغريبة التي لم تصادفوها في نصوص أخرى، أو لم تسمعوا بها من قبل، ولكني أخشى عليكم من تلك الألفاظ التي لا تزال تشيع بصورتها القديمة في الأدب الإنجليزي الحديث، والتي يخطر في أذهانكم لأوّل وهلة أنّ دلالتها واضحة مألوفة لكم جميعا، فهي محل الزلل والخطأ؛ لأنّ كثيرا منها قد تطورت دلالته، وتغيرت مع الزمن. أما الأولى فأمرها هيّن لا تكلفكم سوى البحث عنها في مظانها والوقوف على معناها"(١)، على حين الثانية تفرض عليكم الاستعانة بالسياق وبخاصة السياق الاجتماعي.

- السياق في المدونة الأصولية العربية:

السياق بوصفه مبدءا مهما للتأويل اهتمّ به علماؤنا العرب في التراث وأشادوا بدوره وفاعليته، ومن أولئك نذكر علماء أصول الفقه والتفسير فقد ركّزوا في قراءتهم للنصين القرآني والنبوي على أن يكون السياق حاضرا لتجنّب أي انزياح دلالي وأي تأويل منحرف، فاستمساكهم به دليل على حرصهم الشديد للوصول إلى المعنى المراد من الكلام، حتّى إنّه يكاد يغلب على بحثهم ومنهجهم أنّ الدلالة في كلّ موضع إنّما تتحقّق بحسب السياق.

وعلى وفق هذا التصوّر والمنحى الفكري ظهر أنّهم لا يركّزون جهدهم في تفسير النصوص على المستوى المعجمي، والنحوي، والصرفي فحسب، وإنّما يردفون إليها مبدأ السياق؛ لأنّ المستويات السابقة تكشف المعنى السطحي والظاهر، في حين يكشف السياق المعنى المخبوء والمقصود للمتكلم، يقول ابن قيّم الجوزية: "والسياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير

(١) إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، سنة ١٩٦٣، ص١٢٣.

المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوّع الدلالة.

وهذا من أعظم القرائن الدّالة على مراد المتكلّم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظراته، فانظر إلى قوله تعالى: "ذق إنّك أنت العزيز الكريم" كيف تجد سياقه يدلّ على أنّه الذليل الحقير "(١)، وفي هذا النص إشارات عدة؛ لعلّ من أهمّها أنّ السياق ليس مجرد حالة لفظ، وإنّما كما قال فان ديك: "متوالية من أحوال اللفظ"(٢).

وبوادر الاهتمام بالسياق بوصفه عنصرا فاعلاً ومصطلحا فنّيا تعود جذوره إلى الشافعي الذي عقد بابا في رسالته أسماه "باب الصنف يبيّن سياقه معناه "(٣) والفصول التي خصّصها وعرض فيها تصوره الأصولي قائمة أساسا على هذا المبدأ المهم، وإن كان في الغالب لا يصرّح بلفظه، وإنّما يكتفي بتلميحات و إشارات تدلّ عليه، وقد جاء في توصيف نسق التواصل اللغوي عند العرب قوله:" وتبتدئ – أي: العرب – الشيء من كلامها يبيّن أوّل لفظها فيه عن آخره، وتبتدئ الشّيء يبيّن آخر لفظها منه عن أوّله"(٤).

ويحيل هذا الإدراك المبكّر لفكرة السياق على أنّ الأصولي كان دائما يعدّ السياق قيمة مرجعية لفهم النص، وأي إهمال لهاته القيمة يصحبه مغالطات وانحرافات على مستوى التأويل. وقد عدل الشاطبي عن لفظ السياق إلى لفظ المساق الذي يشمل سياق النص وسياق الموقف، وأكّد على ضرورة وحتمية الاستنجاد به لفهم مقصود الشارع.

(١) ابن قيّم الجوزية، بدائع الفوائد، ضبط وتخريج أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، ط١، سنة ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، بيروت، ص٢١٧.

(٢) فان ديك، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، ط٢٠٠٠، المغرب، ص٢٥٦.

(٣) الشافعي، الرسالة، تحـ: أحمد محمد شاكر، دار الفكر، ص٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٢.

يقول في هذا الشأن: " المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان، والذي يكون على بال من المستمع والمتفهّم الالتفات إلى أوّل الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أوّلها دون آخرها، ولا في آخرها دون أوّلها... ولا محيص للمتفهّم عن رد آخر الكلام على أوّله، وأوّله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف "(١).

ويتضام في البيئة الأصولية لفظ السياق مع لفظ السباق، وغالبا ما يفهم أنّ السباق ما سبق إلى الذهن على موضع الإشكال أو الحكم، والسياق ما سيق من أجله النص، قال العطّار في حاشيته: "وقرينة السياق هي ما يؤخذ من لاحق التركيب الدّال على خصوص المقصود أو سابقه، وأمّا قرينة السباق – بالباء الموحدة – فهي دلالة التركيب على معنى يسبق إلى الفهم منه مع احتمال إرادة غيره، وتسمّى دلالة السباق"(٢) والأخرى دلالة السياق.

وعليه المفكّر لم يغفل الأصولي البتة عن دور ومهام السياق في إبانة المقصود، وهي الحقيقة التي تؤكّدها الدراسات اللسانية الحديثة، فقد عَدَّت السياق نصا آخر أو نصا مصاحبا للنص الظاهر(٣). وفي هذا إشارة إلى وجود خطابين: خطاب متوار أو مسكوت عنه، وخطاب ملفوظ.

– أنواع السياق في المدونتين اللسانيتين العربية والغربية:

تؤكّد الدراسات الدلالية واللغوية التي أجريت حول السياق أنّ هناك خمسة سياقات ينبغي أن تراعى في تحليل خطاب ما تحليلا لسانيا، أربعة منها تدخل

(١) الشاطبي ، الموافقات، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، (د ت ط)، ٣/ ٤١٣-٤١٤.

(٢) حاشية الشيخ حسن بن محمود العطار على شرح جلال الدّين المحلي على متن جمع الجوامع، إمام تاج الدين السبكي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١/ ٣٠.

(٣) فان ديك، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص٢٥٦.

ضمن اهتمامات علم الدلالة، وهي: السياق اللغوي، والعاطفي، والاجتماعي، والثقافي والخامس سياق تداولي يندرج ضمن اهتمامات علم جديد يسمى التداولية أو علم التخاطب pragmatique.

١- السياق اللغوي -المعجمي-:

نشير في هذا المقام إلى أنّ إفراد السياق اللغوي-المعجمي- عن السياقات الأخرى الثقافية والعاطفية والحالية والتداولية لا يعني إمكان تمثل هذه السياقات بمعزل عنه، لا نقصد ذلك، إنما المقصود أنّ المعجمي في عمله يهتم بالدلالة اللغوية للفظة من دون الإشارة إلى الدلالات العاطفية والثقافية والتداولية التي تحملها، فكلمة: "وزير" مثلا في قوله تعالى: "واجعل لي وزيرا من أهلي"(١) تحمل إليك ما أحسّه موسى عليه السلام من الحب والتقدير لأخيه، وما يحسه العاجز عن أن ينهض بعبء ثقيل، فيلتمس العون من أقرب الناس إليه، وهذه المعاني العاطفية لا يقدمها لك السياق اللغوي-المعجمي- أضف إلى ذلك أنّ كلمة "وزير" نفسها تدل دلالة أخرى في نص آخر، والنص الآخر بيت لشاعر عباسي، وهو:

سبحان ربي الخالق الباري صرت وزيرا يا ابن عمار

فإذا عرفت أنّ ابن عمار كان طحانا، لا حظّ له من علم أو سياسة، ثم رفعه القادر إلى كرسيّ الوزارة أدركت حينها ما تنطوي عليه كلمة: "الوزير" من السخرية والاحتقار والعجب ونقد الأحوال السياسية والاجتماعية، ومن التنديد بالوزير وبمن استوزره، وبمن دانوا لوزارته(٢). وعليه المقصود بالسياق اللغوي ما يقدمه صاحب المعجم من دلالات لغوية للكلمة من دون الإشارة إلى دلالاتها الثقافية والعاطفية.

(١) سورة طه، الآية: ٢٩.

(٢) ينظر: غازي مختار طليمات، في علم اللغة، دار طلاس، ط٣، ٢٠٠٧، دمشق، ص٢١٣.

السياق اللغوي هو الكم الدلالي المدرك من مدخل معجمي واحد مرتبط بمداخل أخر في نظام الجملة، أو هو: حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة متجاورة وكلمات أخرى؛ مما يكسبها معنى خاصا محدّدا، ويمكن التمثيل لذلك بمدخلين لسانيين جاء ذكرهما في مؤلَّف أبي البقاء العكبري "المسائل العُكبريّات في اللغة والنحو والقراءات". ذكر في مبحث اللغة أنّ المدخل المعجمي "النفس" يختلف مدلوله من سياق لغوي إلى آخر، كما هو مبيّن في الخطابات الآتية(١):

- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقال عزّ وجلّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧]، وقال الهذليُّ:

نَجَا سالمٌ والنّفْسُ منْهُ بِشِدقِه ولمْ ينْجُ إلا جَفْنَ سيْفٍ ومِئْزَرا

مدلول النفس في الآيتين والبيت هو الكائن الحيّ، من إنسان أو حيوان وهي التي تموت بموته.

- قال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، النفس هنا بمعنى: الغيب؛ أي تعلم غيبي، وما عندي، ولا أعلم غيبك، وما عندك وقيل إنّها بمعنى عند؛ أي إنّك تعلم ما عندي ولا أعلم الذي عندك.

- قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] النفس في الآية بمعنى الروح.

- قال عبيد الله بن قيس الرُّقَيَّات القرشي المكي(٢):

يَتَّقِي أَهْلُهَا النَفُوسَ عَلَيْهَا فَعَلَى نَحْرِهَا الرُّقى والتميم

النفس في البيت بمعنى: العين التي تصيب الإنسان، ومنه قول العرب:

(١) أبو البقاء العكبري، المسائل العكبريات في اللغة والنحو والقراءات، تحـ: محمد أديب عبد الواحد جمران، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٨، دمشق، ص٤٣-٤٧

(٢) ابن قيس الرقيات،الديوان،تحـ:محمد يوسف نجم، دار بيروت، ط١٤٠٦هـ-١٩٨٦ ص١٩٥.

أصَابَت فلانا نفْسٌ؛ أي: عيْنٌ. قال ابن الأعرابي: النَّفُوسُ: الرَّجُلُ الذي يُصيبُ بالعيْن.

– قال البارقيُّ–ويُقال: إنّ البيت للممزّق العبدي:

فَبَاتَتْ لها نَفْسَانِ شَتَّى هُمُومُهَا فَنَفْسٌ تُعَزِّيها، ونَفْسٌ تَلُومُهَا

مدلول لفظ النفس في هذا الموضع: الهِمَّةُ والإرادة.

– قال السَّمَوْألُ[1]:

تَسِيلُ على حدِّ الظُّبَاتِ نُفُوسُنَا وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الظُّبَاتِ تسيلُ

النفس هنا بمعنى الدّم.

– قال تعالى: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ**﴾ [النور: ٦١]، يراد بالنفس: الأخ.

– قال تعالى: ﴿**أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ**﴾ [الزمر: ٥٦] المراد بالنفس في سياق الآية: الإنسان جميعه.

فبنظرة عجلى إلى ما سلف تبيّن أنّ السياق اللغوي جعل المعنى سهل الانقياد للفهم وللملاحظة وللتحليل الموضوعي، وفي الآن نفسه فتح المجال أمام المخاطَب ليتحرّك في نسق بناء المعنى والتأويل على مستوى هذه الدلالات. ويمكن أن نزيد الأمر وضوحا بمدخل لساني آخر، وهو "الوجه"، الذي له في سياق البيان العربي عدّة معان، منها[2]:

– الوجه المعروف من كُلّ حيوان، وهو الذي يكون فيه العينان والأنفُ والفمُ.

– مُحَيَّا الإنسان؛ أي: جماعة الوجْه، ويقال: حُرُّ الوَجْه.

– أنّ الوجْه للبيت هو الخَدُّ، ويكون فيه بابُه، ومنه قولُهُم: وجْهُ الكعبة.

(١) السموأل، الديوان (منشور ضمن مجموعة ديوان المروءة)، تح: يوسف شكري فرحات، دار الجيل، ١٤١٣هـ–١٩٩٢م، بيروت، ص٣٦.

(٢) أبو البقاء العكبري، المسائل العكبريات، تح: محمد أديب، ص٢١–٢٥.

– أنّه القصْدُ، وبه فُسِّر قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**﴾ [لقمان: ٢٢]، ويكون ذلك بفعل الإنسان وإرادته وبتوفيق من الله تعالى. ومنه قول الشاعر:

وأسْلَمْتُ وَجْهِي حين شُدَّتْ ركائبي إلى آل مروانٍ، بُناةِ المكارِمِ

يريد أنّني جعلْت الإرادة والقصْدَ لهم.

– أنّ الوَجْهَ القلْبُ، ومنه قولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ: "لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُم أو لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بينَ وُجوهِكُم"(١)، أراد: قُلوبَكُم.

– أنّ وجْهَ كُلّ شيءٍ هو ما يبدو لك منْه، ومنه قولهم: وَجْهُ النَّجْم؛ أي: ما بدا منه وظَهَر للعيان.

– أنّه القَدْرُ والمنْزِلَةُ، ومنه قولُهم: زيدٌ أوْجَهُ من عمرو؛ أي: هو أجَلّ منْه قدْرا، ويقولون: لهُ وجْهٌ عريضٌ؛أي: منْزِلَةٌ عظيمةٌ، وأَوْجَهَهُ السلطانُ: إذا جعل له منزلةً عنده، ومنه قول امرئ القيس(٢):

ونَادَمْتُ قَيْصَرَ في مُلْكِهِ فَأَوْجَهَنِي، ورَكِبْتُ البَرِيدا

– أنّ الوجْهَ: المعْنى، وفي حديث أبي الدّرداء: "ألا تفقه حتّى تَرَى للقرآن وجوهًا"(٣)، يريد: معانيَ.

– الرئيس، أو الزّعيمُ، أو السيّدُ، يقال: هؤلاء وجوه البَلَد؛أي هم رؤساؤه وأشْرافُهُ.

– التّدبير، وبه فُسِّرَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّه**﴾ [البقرة: ١١٥]؛ أي: تدبيره.

– أنّ وَجْهَ الشيءِ: الشيْءُ نفْسُهُ. من باب دلالة الجزء على الكل؛ ولم يذكر له

(١) صحيح البخاري: كتاب الأذان–الباب: ٧١. ومسند أحمد: ٤/ ٢٧١.

(٢) امرؤ القيس، الديوان، ط. السندوبي، مصر، ص٨٠.

(٣) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ٥/ ١٣٩.

العكبري مثالا، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [القصص: ٨٨].

– أنّه الجاه، والعرب تقول: رجلٌ وَجْهٌ ووجيهٌ؛ أي: إنّهُ ذو جاه.

– أنّ وجْهَ كلِّ شيء: سَنَنُهُ، وصَرَفْتُ الشّيء عنْ وجهه؛ أي: عن سننه.

– أنّه: الجِهةُ والمَذْهَبُ، قال حمزة بن بيض الحنفي:

أيَّ الوُجوهِ انْتَجَعْتَ؟ قُلْتُ لَهُمْ: لأيِّ وَجْهٍ إلا إلى الحَكَمِ

– أنّه: الاحتيال في الأمر، وهو من قولهم: كيف يكون الوَجْهُ في هذا الأمرِ؟ أي: كيف تكون الحيلةُ فيه؟.

– أنّ وجْهَ كُلِّ أمْرٍ إنّما هو: أوّلُهُ وَصَدْرُهُ، وما يستقبلك منه، وبه فُسّر قوله تعالى: ﴿ **آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ** ﴾ [آل عمران: ٧٢].

– أنّه: الرّضا، قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ** ﴾ [الروم: ٣٨]، وقال سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ** ﴾ [الإنسان: ٩]؛ أي: لرضوانه وثوابه، وقيل: إن الوجه في الآية الأخيرة بمعنى: من أجْل؛ أي نطعمكم من أجل الله.

تبيّن أن اللغة تمدّ المتكلّم والكاتب بقدر من الدلالات للفظ الواحد، وفي هذا دليل على طواعيتها، ولكن في الآن نفسه تفرض على المتلقي والقارئ الحراك على مستوى هذه الدلالات، وتدعوه للاستعانة بالسياق اللغوي؛ لبيان الدلالة المقصودة لذلك اللفظ نفسه المتكرر في أبنية الخطابات والنصوص.

٢– السياق العاطفي:

السياق العاطفي هو: السياق الذي يسعى إلى الكشف عن المعنى الوجداني الذي قد يختلف من شخص إلى آخر، فهو سياق يحاكي المشاعر والانفعالات المخبوءة في ذات الإنسان، التي تحملها معاني الألفاظ، يقول ستيفن أولمان: "السياق وحده هو الذي يوضّح لنا ما إذا كانت الكلمة ينبغي أن تؤخذ على أنّها تعبير

موضوعي صرف أو أنّها قُصد بها أساسا التعبير عن العواطف والانفعالات وإلى إشارة هذه العواطف والانفعالات. ويتضح هذا خصوصاً في مجموعة معيّنة من الكلمات، نحو: حرية وعدل التي قد تشحن في كثير من الأحيان بمضامين عاطفية، بل إنّ بعض الكلمات المستعملة في الحياة اليومية العادية قد تكسب نغمة عاطفية قوية، وغير متوقعة في المواقف الانفعالية"(١).

والسياق العاطفي مرتبط بالنفس ارتباطا وثيقا، وهذا الارتباط يختلف من شخص إلى آخر، وكل كلمة تذكر يكون صداها لدى المتلقي تابعا لحالته النفسية، ومثاله في حقل الأدب: ما جاء ذكره في الأغاني أنّ يزيد بن أسلم روى عن أبيه أنّ الحطيئة حين أخرجه الخليفة عمر – رضي الله عنه – من السجن أنشد(٢):

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر؟

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر

لقد أراد الحطيئة أنّ يصوّر مشهدا يعكس فيه حال الأبناء الصغار وهم جياع في موقف السائل الراجي عفو الخليفة عن أبيهم، هنا تبدّى أنّ المعنى المدرك من خلال السياق هو الاستعطاف، كما أنّ هناك معاني عاطفية محمّلة في الألفاظ تتفرّع عنه، كالجوع الذي لا يدفعه غير أبيهم، فهم زغب الحواصل، ولا يطعم الطيور إلا الآباء والأمهات، كما تعني الرعب والرهبة "في قعر مظلمة"، وتشمل كذلك طلب العفو "اغفر...يا عمر"، فهذه الألفاظ من حيث الدلالة الصوتية ومن حيث التركيب تنفرد بحمولة عاطفية يطلبها السياق؛ ليكون المعنى قادرا على التأثير على الخليفة العادل(٣).

(١) ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر:كمال بشر، مكتبة الشباب، ط١٩٨٨م، القاهرة ص٦٢.

(٢) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية، (د.ت.ط)، ٢ / ١٠٧.

(٣) ينظر محمود محمد عيسى، السياق الأدبي –دراسة نقدية تطبيقية–، مكتبة نانسي، دمياط، ط، ٢٠٠٤، مصر، ص٤١.

وعليه كانت دلالة الصورة النابعة من الوجدان إحدى الوسائل التي تضافرت مع الدلالة الصوتية ودلالة التركيب في تحقيق حيوية المعنى الذي يتطلبه السياق العاطفي، بحيث يصبح نمو الفكرة رهن ما يضيفه السياق إليها، ليغدو أخيرا نشاطا من نشاطات الفكرة أو إفرازا لها، وفي الوقت نفسه مشاكلا لها، هو في المرحلة الأولى سياق عاطفي، وفي الثانية سياق جمالي، والمراد بالسياق الجمالي ذلك الأثر الذي يحرّك النفس نتيجة لانتقاء السياق لمفردات تعمّق الإحساس بالفكرة والانفعال بها، وقد كانت قبل قيام السياق بدوره غفلا من هذا الملمح الجمالي الذي قام بتحقيقه علاقة التأثير المتبادلة بين الشكل والمضمون(١).

ويمكن أن نمثّل للسياق العاطفي في الحقل اللغوي بما جاء في فقه اللغة للثعالبي: "لا يقال عويل إلّا إذا كان معه رفع صوت وإلا فهو بكاء"(٢)، فالملفوظ اللساني "عويل" والملفوظ "بكاء" مع التواشج الحاصل بينهما وأنّهما ينتميان إلى الحقل الدلالي نفسه إلا أنّهما يختلفان من حيث درجة الانفعال في الوظيفة السياقية، فلا يوظّف المدخل اللساني عويل إلا إذا كان المنظور إليه يبكي بكاء يرافقه رفع صوت.

٣- سياق الموقف أو سياق الحال:

يقصد به الظروف والملابسات الاجتماعية التي تصاحب الكلام، هذه الظروف والملابسات أجملت في النقاط الآتية(٣):

- شخصية المتكلّم والسامع وتكوينهما الثقافي، وشخصيات من يشهد الكلام

(١) المرجع نفسه، ص٤١.

(٢) الثعالبي، فقه اللغة، حقـ: عمر الطباع، شركة الأرقم بن أبي الأرقم، ط١، سنة ١٩٩٩م، الكويت ص٣٩.

(٣) جون ليونز، نظرية المعنى عند فيرث، تر: عبد الكريم مجاهد، مجلة الفكر العربي، العدد٧٨ خريف ١٩٩٤م، بيروت، ص٢٥-٣٢.

غير المتكلّم والسامع -إن وجدوا- وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي، ودورهم أيقتصر على الشهود أم يشاركون من آن لآن بالكلام والنصوص الكلامية التي تصدر عنهم.

- العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة، والسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي، كحالة الجو إن كان لها دخل، وكالوضع السياسي، وكمكان الكلام، وكل ما يطرأ في أثناء الكلام ممن يشهد الموقف الكلامي من انفعال، أو أي ضرب من ضروب الاستجابة، وكلّ ما يتعلّق بالموقف الكلامي، أيّا كانت درجة تعلّقه، وهذا كلّه يسمّى بالحدث غير الكلامي الذي يصاحب الحدث الكلامي.

- أثر النص الكلامي في المشتركين، كالاقتناع، أو الألم، أو الإغراء أو الضحك...

وعند تصفّح التراث العربي نجد ما يوضّح هذا الذي ذهب إليه فيرث ويزيده ثراء، أشار ابن جنّي إلى أهمية سياق الحال وأبان عن أهمية الحدثين: الكلامي وغير الكلامي في مورد حديثه عن ما قصدت إليه العرب من حديثها أو شعرها فقال: "والذي يدلّ على أنّهم قد أحسّوا ما أحسسنا وأرادوا ما نسبنا إليهم من إرادته وقصده شيئان؛ أحدهما حاضر معنا والآخر غائب عنّا، إلا أنّه مع أدنى تأمّل في حكم الحاضر معنا، فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها، وتضطر إلى معرفته من أغراضها وقصورها، من استخفافها شيئا أو استثقاله، وتقبّله أو إنكاره، والأنس به والاستيحاش منه، والرضا به أو التعجّب من قائله، وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالمقصود، بل الحالفة على ما في النفوس"(١).

ولعلّ بيت القصيد فيما ذكره ابن جني يتجلى في قوله: "الأحوال الشاهدة

(١) ابن جنّي، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ١٩٥٢-١٩٥٦م، القاهرة، ١/ ٢٤٥.

بالمقصود، بل الحالفة على ما في النفوس"، وهذا الذي أراده فيرث وعناه. ولم يكتف ابن جنّي بهذا التنظير فقط، بل أتبعه بالتطبيق، مستشهدا بقول نعيم بن الحارث السعدي:

وصكّت وجهها-بيمينها أبَعْلِي هذا بالرّحى المتقاعس

يعلّق قائلا: "فلو قال -يريد الشاعر- حاكيا عنها -أي: زوجة الشاعر- أبعلي هذا بالرحى المتقاعس، من غير أن يذكر صكّ الوجه؛ لأعلمنا بذلك أنّها متعجّبة منكرة، لكنّه لمّا حكى الحال، فقال: "وصكّت وجهها"، علم بذلك قوّة إنكارها وتعاظم الصورة لها، وهذا مع أنّك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف، وبعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين"(١).

والمثال الذي ساقه ابن جنّي يشمل حدثين:

- الحدث غير الكلامي: يتمثّل في قول الشاعر "وصكّت وجهها بيمينها".
- الحدث الكلامي: يتمثّل في قولها: "أبعلي هذا بالرحى المتقاعس".

وفي مشاهدة جمهرة أهل اللغة لوجوه العرب فيما تتناقله وتتعاطاه مزيد تأكيد ورفع لبس ما لسياق الحال من أهمية، "فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو وابن أبي إسحاق، ويونس، وعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه، وأبو الحسن، وأبو زيد وخلف الأحمر، والأصمعي، ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها وتقصد له من أغراضها ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور ما لا تؤدّيه الحكايات ولا تضبطه الروايات"(٢).

من هنا لا نعجب عندما يورد النحاة في ثنايا حديثهم عن الكلام سياق الحال قال ابن هشام: "الكلام ما تحصل به الفائدة، سواء أكان لفظا، أو إشارة أو ما نطق

(١) المصدر نفسه، ١/ ٢٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ١/ ٢٤٨.

به لسان الحال"(١)، ويمدّنا التعريف بأربعة أطراف، طرفان موجودان في المحيط الخارجي الذي يكتنف موقف الخطاب، وهما: الإشارة، ووقائع الحال المحسّة التي يقع فيها الخطاب، وطرفان موجودان في المحيط الداخلي للخطاب،وهما اللفظ والتركيب.

وما لفت انتباه نهاد الموسى في مقام بسط الحديث عن ثنائية سياق الحال والنحو عند ابن هشام كلمة الإشارة لما لها من وظيفة تبليغية ودلالية -مسكوت عنها في الغالب- في الخطاب غير المكتوب، وجرى تقرير أنّ عناصر الموقف الخارجي في استعمال اللغة يبلغ سبعين في المائة من درجة تأثير الكلام في مواقف الخطاب، وذلك مردّه النظرات المتبادلة عند الحديث وما تحمله من معان، في حين تتدنّى قيمة الدلالة التعبيرية وتأثيرها إلى ثلاثين في المائة إذا اقتصر الأمر على مجرد الكلام المنطوق(٢).

وهذا التلاحم والترابط بين ثنائية المنطوق / والمرئي أو المشاهد في العملية الكلامية أمر ضروري ومؤكّد، "فلو كان استماع الأذن مغنيا عن مقابلة العين مجزئا عنه لما تكلّف القائل ولا كلّف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه (. . .) وعلى ذلك قالوا: ربّ إشارة أبلغ من عبارة، وقال لي -أي: لابن جني- بعض مشايخنا رحمه الله: أنا لا أحسن أن أكلّم إنسانا في الظلمة"(٣).

٤- السياق الثقافي:

يُفَسِّر هذا النوع من السياقات المدخل المعجمي في خضم بيئته الثقافية

(١) ابن هشام، شرح شدور الذهب، تحـ: محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، ط٨ عام١٣٨٠هـ-١٩٥٦م، القاهرة، ص٢٨-٢٩.

(٢) نهاد الموسى، ينظر الصورة والصيرورة بصائر في أحوال الظاهرة النحوية ونظرية النحو العربي، دار الشروق، ط١، عام٢٠٠٣م، عمان، ص١٢٥-١٢٦.

(٣) ابن جني، الخصائص، ١/ ٢٤٧.

المستخدم فيها، فالكلمة وإن كانت هي نفسها بحروفها صامتها وصائتها في الحقول المعرفية المتعدّدة إلا أنّ دلالتها تختلف بحسب نوع السياق الثقافي التي وردت فيه، ويمكن أنْ نمثّل لذلك بالمدخل اللساني "صرف" الذي له معنى مستقل في كل بيئة ثقافية.

– كلمة "صرف" لدى دارسي العربية تستدعي عند إطلاقها مباشرة علم الصرف، الذي يعنى بأحوال الكلمة وما يطرأ عليها من تغييرات.

– لفظ "صرف" لدى أصحاب الهندسة يعدّ مصطلحا تقنيا علميا يراد به عملية التخلّص من المياه بأية وسيلة.

– ولفظ "صرف" في قطاع المال والتجارة له دلالة أخرى، وهي تحويل العملة النقدية من الوجود والكمون –في الحساب المصرفي مثلا– إلى التداول الفعلي، أو تحويل عملة من فئة إلى فئة أو من نقد إلى آخر(١).

٥– السياق التداولي:

أقررنا آنفا أنّ السياق في الحقل اللساني ينقسم إلى خمسة أقسام: سياق لغوي وثقافي وعاطفي واجتماعي، وهذه السياقات تدخل ضمن اهتمام علم الدلالة، وهناك سياق خامس تداولي أو تخاطبي(*) يدخل ضمن اهتمامات علم التخاطب pragmatique وقبل أن نتحدّث بضرب من الكلام عن هذا النوع من السياقات ينبغي وضع أرضية معرفية نبسط فيها الحديث عن علم التخاطب.

علم التخاطب بوصفه علما للتحادث والتحاورpragmatique يترجمه اللسانيون بعدّة ترجمات، نذكر منها: التداولية، علم الاستعمال، وعلم المقاصد والإفعالية، والسياقية، والذرائعية، وحتى النفعية –عند البعض–. يعدّ علما

(١) أحمد محمد قدور، مبادئ في اللسانيات، دار الفكر، ط ٢، سنة ١٩٩٩م، دمشق، ص٢٩٩

(*) وهناك من يعدّ هذا النوع من السياقات جزءاً من سياق الحال.

متفرّعا عن اللسانيات الحديثة، بل هو "قاعدة اللسانيات"(١) كما نصّ على ذلك كارناب R.Carnap يسعى إلى استكشاف العناصر الإجرائية التي يحتكم إليها في تحديد المعنى، وذلك من خلال التركيز على ثنائية المتلفِّظ والمتلفَّظ به في سياق الاستعمال.

ويركّز في تعامله على الفعل الكلامي وعناصر لسانية أخرى تتجاوز محدّدات الدلالة إلى دراسة مدى إمكانية الكشف عن قصدية المتكلّم من خلال إحالة القول على السياق؛ لمعرفة مدى التطابق أو عدم التطابق بين دلالة القول لسانيا وظروف السياق، للكشف عن مجموعة القوانين العامة التي تتحكّم بتحديد دلالة المنطوق سياقيا(٢). وله في المؤلّفات اللسانية الحديثة عدّة تعريفات، نذكر منها:

- شارل موريس Charles Morris : " التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستخدمي هذه العلامات"(٣).

- آن ماري ديلر (Anne Marie Diller) وفرانسوا ريكاناتي (François Récanati) : " التداولية هي دراسة استعمال اللغة في الخطاب"(٤).

- فرانسواز أرمينكو (Françoise Arminguad) : "التداولية علم الاستعمال اللساني ضمن السياق، وبتوسّع أكثر هي استعمال العلامات ضمن السياق"(٥).

- جيف فيرتشيرن (Jef Verschueren) : ذكر تعريفا للتداولية يتوافق مع التعريفات الكثيرة التي دأبت المراجع اللسانية على الإشارة إليها: " إنّنا نعني بالتداولية علم علاقة العلامة بمؤوّليها، فإنّه من التمييز الدقيق للتداولية أن نقول:

(1) Françoise Armenguad, La pragmatique, puf ,4 em Edition 1999,p3.

(٢) معن الطائي، التداولية منهجا نقديا، مجلة الأديب، ع٥٨، سنة ٢٠٠٥م، بغداد، ص٢٢.

(3) Charles Morris, Fondements des théories des signes, in langage. n ?35.Septembre 1974. P19.

(٤) فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، (د ت ط)، ص٨٠.

(٥) المصدر السابق، ص١١.

إنّها تتعامل مع الجوانب الحيوية لعلم العلامات، وهذا يعني كل الظواهر النفسية والاجتماعية التي تظهر في توظيف العلامات"(١).

ومن الواضح أن تعريفات التداولية ترتبط بفكرة الاستعمال التي تردّدت في التعريفات جميعها بشكل أو بآخر، وهذا ما يؤكّد دوره في نجاح التواصل والعمل التداولي، وبالرغم من أنّه تيمة مشار إليها في تراثنا المعرفي العربي إلا أنه لم يستقل أو يعرف بوصفه علما قائما بذاته، في حين نجد المصطلح الآخر المتداول في الدرس اللساني – وأقصد بذلك الوضع – استطاع أن يفرض علميته في تراثنا القديم ويشغل من ثَمَّ حيّزا في المدوّنات المكتوبة، ومع ذلك لا نعدم في العصر الحديث من بعض المحاولات الجادة لصوغ علم للتخاطب الإسلامي يأتي على أصوله ونظرياته ومناهجه كما فعل محمد محمد يونس علي في كتابه علم التخاطب الإسلامي Médiéval islamic pragmatics.

انطلاقا مما سلف يمكن عد السياق التخاطبي نسقا عقليا يروم كشف قصدية المتكلّم من خلال إعمال الذهن في العبارة للوصول إلى الدلالات المخبوءة، مع العلم أنّ هذه الدلالات غير مدركة على مستوى النطق –أو السياق اللغوي– ولكن مشعر بها على مستوى اللفظ، ويمكن تعريفه أيضا بـ ما دلّ عليه اللفظ لا في محل النطق، يقول فان ديك: السياق التداولي يعدّ "نصا آخر أو نصا مصاحبا للنص الظاهر"(٢)، ويقترب هذا من مصطلح "المفهوم" عند الأصوليين، حيث يراد به "ما فهم من اللفظ في غير محلّ النطق"(٣). ومن أمثلته:

(١) عيد بلبع، التداولية إشكالية المفاهيم بين السياقين الغربي والعربي، مجلة سياقات، العدد١، ط١، سنة٢٠٠٧م، القاهرة، ص٣٦.

(٢) فان ديك، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص٢٥٦.

(٣) السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، مطبعة البابي الحلبي، ط٣، سنة ١٤٠٢هـ، بيروت، ٢/ ٣١-٣٢.

١- "في الغنم السّائمة زكاة"(١).

- السياق اللغوي: الغنم السائمة فيها زكاة.

- السياق التخاطبي أو المفهوم: "ليس في الغنم المعلوفة زكاة". وهذا المعنى لا يدل عليه منطوق الجملة.

٢- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات: ٦].

- السياق اللغوي: التبيّن من خبر الفاسق.

- السياق التخاطبي: إذا جاءكم عدل ثبت يسقط التبيّن.

٣- ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ [الطلاق: ٦].

- السياق اللغوي: وجوب النفقة في أثناء العدّة على المطلّقة طلاقا بائنا.

- السياق التخاطبي: عدم وجوب النفقة على المعتدّة غير الحامل.

- السياق التداولي وأفعال الكلام:

ترتبط نظرية أفعال الكلام في المعرفة اللسانية الحديثة بالفيلسوف أوستن J.L.Austin وتقترح هذه النظرية في تحليل العلامات اللسانية الملفوظة والمعنى الناتج عنها أداة إجرائية تكون هي المنطلق والأساس الفاعل في القراءة، تتمثل هذه الأداة في الموروث اللساني التداولي في الفعل، من حيث إنّه النشاط الممكن إنجازه بتلفظنا لنوع من الجمل(٢).

ومفاد الفكرة الرئيسة التي دافع عنها أوستن دفاعا مستميتا أنّ تحديد الفعل الكلامي الذي نوظف له بصورة انتظامية جملة معينة-هو الذي يعطينا ويمنحنا معنى تلك الجملة، فأنا عندما أتلفظ قائلا: نعم إني أقبل أن تكون هذه المرأة

(١) قطعة من كتاب أبي بكر الصديق في الصدقة، وهي فيه بلفظ: "وفي صدقة الغنم في سائمتها...". أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب زكاة الغنم، رقم: ١٤٥٤.

(٢) ينظر أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة-كيف ننجز الأشياء بالكلام-، تر: عبد القادر قينيني إفريقيا الشرق، سنة ١٩٩١م، الدار البيضاء، ص٠٧.

زوجتي الشرعية، يجب الإقرار هنا أني عندما أتلفظ وأتحدث بهذا الكلام، فأنا في حال إنجاز شيء ما، وبعبارة أدق في حال إبرام الزواج أكثر مما أنا في حال الإخبار بالشيء، وبهذا الفعل الإنجازي لا يكون ناجحا دون أن يحدث تأثيرا على المخاطب(١).

وقد ميّز أوستن بين ثلاثة أنواع من الأفعال الكلامية(٢):

أ- فعل قولي locutoire: وهو فعل التلفظ بجملة مع شرط الإفادة، أي: إنّه فعل لقول شيء ما، يراعى فيه قواعد اللغة، ويلاحظ عبر هذا النوع من الأفعال الكلامية عدم إبداء اهتمام بالشخص المتكلّم فاعل العبارة.

ب- فعل إنجازي illocutoire: يراد به الحدث الذي يقصده المتكلم بالجملة، كالأمر والتحذير، ولابد أن يحدث أثرا وتأثيرا ما على المخاطَب، وتكون قيمة العبارة به واصلة إلى تأدية المقصود.

ت- فعل تأثيري (استلزامي) perlocutoire: هو التأثير الذي يوقعه الحدث اللساني في المخاطَب أو المتلقي، كطاعة الأمر، وتقبّل النصيحة، وهذا النوع من الأفعال مفهوم من الخارج، ومن قرائن الأحوال. ويمكن توضيح الأفعال كالآتي:

- الفعل القولي: قال لي خذ الكتاب، أي: إنه تلفظ بتلك الجملة التي تعني إيقاع الأخذ.

- الفعل الإنجازي: أنجز المتلفظ أمرا، فقد أمرني بأخذ الكتاب حين تفوّه بالجملة أعلاه.

- الفعل التأثيري: أقنعني بأخذ الكتاب فاستجبت.

(1) J.Austin, Quand dire c'est faire, Ed du Seuil, Tra: Gille Lane .Paris, 1970, p124.

(2) J.Austin, Quand dire c'est faire, p124.

وينظر أيضا نظرية أفعال الكلام، ص١١٥، ١١٦، ١٣١، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٧.

واستنادا إلى مفهوم القوة الإنجازية ميز أوستن بين خمسة أنواع للأفعال الكلامية(١):

* الأفعال الحكمية (الإقراري) verdictifs: حكم، وعد، وصف.

* الأفعال التمرسية exersitifs: إصدار قرار لصالح أو ضد... أمر، قاد، طلب...

* أفعال التكليف (الوعدية) comessifs: تلزم المتكلّم،وعد، تمنى، التزم ..

* الأفعال العرضية (التعبيرية) expositifs: عرض مفاهيم منفصلة، (أكّد أنكر، أجاب، وهب...).

* أفعال السلوكات (الإخباريات) comportementaux: ردود أفعال تعبيرات اتجاه السلوك: اعتذَر، هنَّأ، حيّ، رحّب،....

إن نظرية أفعال الكلام ترتكز على مظهر دلالي مهم، وهو عَدُّ تلفظاتنا وأقوالنا أفعالا وإنجازات لها نتائج وانعكاسات على باقي الأنشطة التي نقوم بها، وبهذا ينشأ المعنى عن تلك الآثار التي تحدثها الأفعال الكلامية، وهذا يدفعنا إلى ضرورة التفرقة بين هذه النظرية والنظرية السلوكية طالما هناك استجابة محققة، لعل أهم فاصل أن نظرية أفعال الكلام تقر بوجود الحالات الذهنية، بخلاف الأخرى؛ إذ ليست المقاصد المعبّر عنها في نظرية الأعمال اللغوية -أفعال لكلام- سوى الحالات الذهنية.

إلا أن القرب المعلن عنه بين الحالات الذهنية (المقاصد) والأقوال التي تعبّر عنها بصفة تواضعية (الأعمال أو الأفعال الكلامية) يجعل الحالات الذهنية شفافة إلى حدّ ما، ولا تعني هذه الحالات منظري الأعمال اللغوية (أفعال الكلام) إلا بقدر ما يجري التعبير عنها في هذه الأعمال، وهذا التصور للعلاقة بين الحالات الذهنية

(١) ينظر فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، (د ت ط). ص٦٢.

والكلام هو الذي قاد سيرل Searle إلى اقتراح مبدأ قابلية الإبانة(١).

وممّا قدّمه سيرل أيضا أنه أعاد تقسيم الأفعال الكلامية، وميّز بين أربعة أقسام(٢):

- فعل التلفّظ (الصوتي والتركيبي).
- الفعلي القضوي (الإحالي والجملي).
- الفعل الإنجازي (على نحو ما فعل أوستين)
- الفعل التأثيري (على نحو ما فعل أوستين).

وبعدها جرى اقتراح خمسة أصناف، وهي كالآتي(٣):

- الأخبار Assertifs: وهي التي تحمل إحدى قيمتي الصدق والكذب، مثل: أخبر، أكد، زعم، شرح...

- الأوامر أو التوجيهات Directifs: وهي الأفعال التي يكون الغرض منها أن يجعل المتكلم المخاطَب يقوم بفعل ما، مثل: طلب، أمر، ترجى، سأل...

- الوعود أو الالتزاميات Commissifs :والغرض منها إلزام المتكلّم بالقيام بعمل ما في المستقبل، مثل: وعد، أقسم.

- التصريحات Expressifs : وهي التي تعبّر عن الحالة النفسية للمتكلّم، مثل: شكر، هنّأ، اعتذر...

- الإنجازيات Déclarations الإدلاءات: وهي التي بمجرد القيام بها يحدث تغيير في الخارج، مثل: عيّن، زوّج...

(١) آن روبول وجاك موشلار، التداولية علم جديد في التواصل، تر:سيف الدّين دغفوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة، (د ت ط)، بيروت.ص٤٣.

(2) J.R.Searle, Les actes de Langage (essai de philosophie du langage). collection savoir, lecture, Herman, Paris, France.1996, Nouveau tirage. P60.

(3) Ibid. P62.

وينظر عادل فاخوري، تيارات في السيمياء،، دار الطليعة، ط١، سنة ١٩٩٠م، بيروت، ص ٩٨-٩٩.

– الفعل الكلامي بين جمال الدين الإسنوي /وأوستن–جاك موشلار:

يتوافق تصور أوستن لأفعال الكلام مع ما تمليه الثقافة الأصولية في التراث، وأقصد بذلك تصنيف جمال الدين الإسنوي، الذي عَدّ الكلام كيانا مؤلّفا من "خبر وإنشاء"(١) فقط، وهو تقسيم تجمعه قواسم مشتركة مع التصنيف الثنائي للكلام الذي انتهى إليه أوستن J.Austin.

يميّز أوستن بين نوعين من الملفوظات أو الأفعال، الأفعال الإنجازيّة (الإنشائية) Performatifs والملفوظات أو الأفعال الخبرية (Constatifs)(٢)، حيث تتميّز الأخيرة باحتمالها للصدق والكذب، "هي أخبار تتمثل مهمتها في وصف الظواهر والمسارات أو حالة الأشياء في الكون، ولهذه الأقوال (أو القضايا التي تعبّر عنها) خاصية تتمثل في كونها يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة"(٣).

في حين الأولى – الإنشائية–بخلافها؛ لأنّها توظّف من أجل ممارسة أو إنجاز فعل ما، وليس لأجل أن تقول شيئا ما يوصف بأنّه صادق أو كاذب(٤)، فعندما يقول شخص ما: "أنكحك إحدى ابنتي" فهو في حال إنجاز فعل وليس في حال إخبار، لذلك نجد جون ليونز يؤكّد بأنّ هذه الأقوال – الإنشائية– "ليس لها قيمة الحقيقة؛ إذ نستعملها لنصنع شيئا ما لا لئن نقول إنّ شيئا ما صادق أو كاذب"(٥).

(١) جمال الدين الإسنوي، نهاية السول في شرح منهاج الأصول، تح:شعبان محمد إسماعيل، بيروت، دار ابن حزم، سنة ١٩٩٩م، ١/ ١٧٧.

(2) John Lyons, Sémantique Linguistique, Traduit par Jacques Durand et Dominique Boulonnais, Paris, 1980, p346.

Et voir J.L.Austin ,Quand dire c est Faire, p40.

(٣) صابر الحباشة، لسانيات الخطاب الأسلوبية والتلفظ والتداولية، سورية، دار الحوار، ط١، سنة٢٠١٠م، ص١٩٩. (في الكتاب مقال لجون لاينز مترجم بعنوان الصيغة والقوة اللاقولية).

(4) John Lyons, Sémantique Linguistique, Traduit par Jacques Durand et Dominique Boulonnais, p346. Et voir J.L.Austin, Quand dire c est Faire, p40.

(٥) صابر الحباشة، لسانيات الخطاب الأسلوبية والتلفظ والتداولية، ص١٩٩–٢٠٠.

ومع اختلاف الأرضية المعرفية لكل تصنيف، سواء الأصولي أم اللساني ـ التداولي الحديث ـ فإنّ هذا لم يمنع من وجود نقاط ائتلاف تجمع التصنيفين معا، بل لاحظنا أنّ الائتلاف قد تعدّى السجلّ الاصطلاحي (الاتفاق في الأسماء: الخبر والإنشاء) إلى السجلّ الإفهامي (المراد من كل مصطلح)، ويمكن أن نتبيّن ذلك من خلال التصورين الآتيين:

تصوّر الإسنوي:

يقول الإسنوي: " والفرق بين الإنشاء والخبر من وجوه:

– أحدها: أنّ الإنشاء لا يحتمل التصديق والتكذيب، بخلاف الخبر.

– الثاني: أنّ الإنشاء لا يكون معناه إلا مقارنا للفظ، بخلاف الخبر، فقد يتقدم وقد يتأخر.

– الثالث: الإنشاء هو الكلام الذي ليس له متعلق خارجي يتعلّق الحكم النفساني به بالمطابقة، وعدم المطابقة؛ بخلاف الخبر.

– الرابع: الإنشاء سبب لثبوت متعلقه، وأما الخبر فمُظهر له"(١).

تصوّر جاك موشلار Jacque moeschler:

يقول موشلار: "يحصل تمييز الملفوظات الإنشائية (الإنجازية) عن الخبرية بما يأتي:

أ– إنّها غير قائمة على ثنائية الصدق والكذب...

ب– لا تنسب أو تعزى لنشاط القول، ولكن للفعل (إنّها تنجز فعلا).

ت– إنجاز هذا الفعل هو وظيفة عملية التلفظ (الفعل هو نتاج القول)"(٢).

---

(١) الإسنوي، نهاية السول، ١/ ٢٩٨.

(2) J. Moeschler, Argumentation et conversation pour une analyse pragmatique du discours, Hatier-Credif, 1985, p26.

يحيى رمضان، القراءة في الخطاب الأصولي الاستراتيجية والإجراء، عالم الكتب الحديث، ط١، سنة ٢٠٠٧م، الأردن ص٢٧٢–٢٧٣. (أشار مؤلف الكتاب إلى النموذجين المقترحين –الجويني والإسنوي –).

ويمكن توضيح المقاربة من خلال الجدول الآتي(١):

الإسنوي	موشلار
١-الإنشاء لا يحتمل الصدق والكذب بخلاف الخبر. ٢-ليس له متعلق خارجي يتعلق الحكم النفساني به بالمطابقة أو عدم المطابقة بخلاف الخبر. ٣-لا علاقة لها بالقول ولكن بالفعل (تنجز فعلا). ٤-إنجاز هذا الفعل هو وظيفة لعملية التلفظ (الفعل إذن هو منتج بواسطة القول).	١-الأفعال الإنشائية لا تقيم بمصطلحي الصدق والكذب بخلاف الخبر. ٣-الإنشاء سبب لثبوت متعلّقه بخلاف الخبر الذي هو مظهر له. ٤-معناه لا يكون إلا مقارنا للفظ بخلاف الخبر فإنّ معناه قد يتقدم عليه أو يتأخر.

وعموماً، إنّ النظرية تنطلق من مقولة مالينوفسكي التي مفادها أن "اللغة أسلوب عمل وليست توثيق فكر"(٢). وتتخذ من العلامات اللسانية المنطوقة والمنجزة في سياقات معينة، وبطريقة معينة أساسا مفسرا، لذلك تتداخل المنطوقات بين التقدير والأداء وترتبط مباشرة بالموقف الذي تقال فيه، يقول جون ليونز: "يجب علينا في تحليل الأعمال الكلامية أن نحسب حسابا لحقيقة أن الجمل تنطق ضمن سياقات معينة وأن جزءا من معنى نقش الكلام (المنطوق) يستمد من السياق الذي ينتج فيه، ويتضح هذا تماما في إشارة التعابير المؤشرة التي يشملها السياق"(٣).

وهكذا يعد السياق قيمة مرجعية وأداة مهمة لتعقّل الخطابات والنصوص، وأي

(١) يحيى رمضان، القراءة في الخطاب الأصولي، ص٢٧٣.

(٢) عبد الرحمن بدوي، اللغة والمنطق في الدراسات الحالية، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني، العدد الأول، سنة ١٩٧١م، الكويت ص٦٩.

(٣) جون ليونز، اللغة والمعنى والسياق، تر: عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة ط١، سنة ١٩٨٧م، بغداد، ص ٢٠٠.

إهمال لهذه القيمة أثناء استنطاق النصوص وبيان مقاصد المتكلمين ينجم عن ذلك أزمة تواصل، وفوضى دلالية، وإجهاض للمعاني، وانفتاح وامتداد لسلطة التأويل الفاسد، ومن آثار ذلك أيضاً: صدع وخدش العملية التواصلية وهدم للغة التي تقوم في بنيتها على ثلاثية تلازمية الصوت والدلالة والقصد.

المصادر والمراجع

- آن روبول وجاك موشلار، التداولية علم جديد في التواصل، تر:سيف الدّين دغفوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة، (د ت ط)، بيروت.
- إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، سنة ١٩٦٣م.
- ابن جنّي، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ١٩٥٢-١٩٥٦، القاهرة .
- ابن قيس الرقيات، الديوان، تح: محمد يوسف نجم، دار بيروت، ط١٤٠٦هـ-١٩٨٦.
- ابن قيّم الجوزية، بدائع الفوائد، ضبط وتخريج أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، ط١ سنة ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، بيروت.
- ابن هشام، شرح شذور الذهب، تح: محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، ط٨، عام١٣٨٠هـ-١٩٥٦م، القاهرة.
- أبو البقاء العكبري، المسائل العكبريات في اللغة والنحو والقراءات، تح: محمد أديب عبد الواحد جمران، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٨، دمشق.
- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب المصرية، (د.ت.ط).
- أحمد محمد قدور، مبادئ في اللسانيات، دار الفكر، ط ٢، سنة ١٩٩٩، دمشق.
- امرؤ القيس، الديوان، ط. السندوبي، مصر.
- أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة-كيف ننجز الأشياء بالكلام-، تر: عبدالقادر قينيني إفريقيا الشرق، سنة ١٩٩١، الدار البيضاء.
- تاج الدين السبكي، حاشية الشيخ حسن بن محمود العطار على شرح جلال الدّين المحلي على متن جمع الجوامع، دار الكتب العلمية، بيروت.

- الثعالبي، فقه اللغة، حقـ: عمر الطباع، شركة الأرقم بن أبي الأرقم، ط١، سنة ١٩٩٩ الكويت.
- جمال الدين الإسنوي، نهاية السول في شرح منهاج الأصول، تحـ: شعبان محمد إسماعيل، بيروت، دار ابن حزم، سنة ١٩٩٩.
- جون ليونز، اللغة والمعنى والسياق، تر: عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة ط١، سنة ١٩٨٧، بغداد.
- جون ليونز، نظرية المعنى عند فيرث، تر: عبد الكريم مجاهد، مجلة الفكر العربي، العدد ٧٨ خريف ١٩٩٤، بيروت.
- ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر: كمال بشر، مكتبة الشباب، ط ١٩٨٨، القاهرة.
- السموأل، الديوان (منشور ضمن مجموعة ديوان المروءة)، تحـ: يوسف شكري فرحات، دار الجيل، ١٤١٣هـ-١٩٩٢، بيروت.
- السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، مطبعة البابي الحلبي، ط٣، سنة ١٤٠٢ هـ، بيروت.
- الشاطبي، الموافقات، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، (د ت ط).
- الشافعي، الرسالة، تحـ: أحمد محمد شاكر، دار الفكر.
- صابر الحباشة، لسانيات الخطاب الأسلوبية والتلفظ والتداولية، سورية، دار الحوار، ط١ سنة٢٠١٠.
- عادل فاخوري، تيارات في السيمياء، دار الطليعة، ط١، سنة ١٩٩٠ بيروت.
- عبد الرحمن بدوي، اللغة والمنطق في الدراسات الحالية، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني، العدد الأول، سنة ١٩٧١ الكويت.
- عبد الكريم مجاهد، الدلالة عند ابن جنّي، مجلّة الدارة، العدد الأوّل-شوال ١٤٠٣هـ-يوليو١٩٨٣، الرياض.

- عيد بلبع، التداولية إشكالية المفاهيم بين السياقين الغربي والعربي، مجلة سياقات، العدد١، ط١ سنة٢٠٠٧، القاهرة.

- غازي مختار طليمات، في علم اللغة، دار طلاس، ط٣، ٢٠٠٧، دمشق.

- ف. ر. بالمر، علم الدلالة إطار جديد، تر: صبري إبراهيم السيّد، دار المعرفة الجامعية ١٩٩٩.

- فان ديك، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، ط٢٠٠٠، المغرب.

- ف. ر. بالمر، علم الدلالة إطار جديد، تر: صبري إبراهيم السيّد، دار المعرفة الجامعية ١٩٩٩.

- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، (د ت ط).

- فندريس، اللغة، تر: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت.ط.

- محمود محمد عيسى، السياق الأدبي -دراسة نقدية تطبيقية- مكتبة نانسي، دمياط، ط ٢٠٠٤، مصر.

- معن الطائي، التداولية منهجا نقديا، مجلة الأديب، ع٥٨، سنة ٢٠٠٥، بغداد.

- نهاد الموسى، ينظر الصورة والصيرورة بصائر في أحوال الظاهرة النحوية ونظرية النحو العربي دار الشروق، ط١، عام٢٠٠٣، عمان.

-يحيى رمضان، القراءة في الخطاب الأصولي الإستراتيجية والإجراء، عالم الكتب الحديث، ط١ سنة ٢٠٠٧، الأردن.

- Charles Morris, Fondements des théories des signes, in langage. n °35. Septembre 1974.

- Françoise Armenguad, La pragmatique, puf ,4 em Edition 1999.

- J.Austin, Quand dire c'est faire, Ed du Seuil, Tra: Gille Lane .Paris, 1970.

- J. Moeschler, Argumentation et conversation pour une analyse pragmatique du discours, Hatier-Credif, 1985.

- John Lyons, Sémantique Linguistique, Traduit par Jacques Durand et Dominique Boulonnais, Paris, 1980.

- J.R.Searle, Les actes de Langage (essai de philosophie du langage). collection savoir, lecture, Herman, Paris, France.1996, Nouveau tirage.